دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الملابس فى العهد المملوكى: تأنق ورفاهية وانضباط
المصدر:	مجلة الرافد 2
الناشر:	حكومة الشارقة - دائرة الثقافة والإعلام
المؤلف الرئيسي:	جوهر، صديق محمد
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	أغسطس
الصفحات:	12 - 17
رقم MD:	756237
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	عادات وتقاليد، اللباس، العصر المملوكى
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/756237

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الملابس في العهد المملوكي

تأنّقٌ ورفاهيةٌ وانضباط

د. صديق محمد جوهر

لا يمكن لأي نقاش يدور حول الأقمشة والملابس في العهد المملوكي[1]، أن يغفل الإشارة إلى مفهوم كلمة «قماش»، فقد ظهرت هذه الكلمة للمرة الأولى في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، ولا يلوح أنها ذاعت وانتشرت إلا في العهد المملوكي. لكن منطوق الكلمة في العصور الوسيطة وحين كُتِبتْ فيما بعد وفي عامِيتّها العربية (كما في الفارسية والتركية) لا تعني أكثر من «مادة منسوجة». وكانت غير معروفة أو مألوفة إذا ما قورنت بالتسميتين الأكثر قدماً وهما (بَزٌّ وثياب). ويضاف إلى ذلك ما نعلمه من أن لفظة «قماش» كان يقصد بها عند المماليك «الزى الرسمي الموحد». ويُعزى إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فضل إضفاء الصبغة الرسمية على الشاش والقماش (لبس العباءة الرسمية والعمامة القماشية) كزيٍّ موحد لفرسان المماليك. وعند إعتاق المملوك الشاب وانخراطه في صفوف الجندية، كان يستلم قماشه وسيفه وحصانه. وكان ارتداء أو لبس القماش يعنى «ارتداء الكاكي» - أي الزي العسكري – الذي يعد مخالفاً لارتداء «الزى المدني»[2].

وكما هو شأن الجيوش الحديثة في ارتدائها ملابس عديدة تناسب اختلاف الفصول وتعدد المناسبات، كان المماليك في عهودهم المختلفة يعمدون إلى فعل ذلك. فقد كان ثمة زي صيفي أبيض خاص، وكانوا يسمونه القماش الأبيض الصيفي، وكان هناك أيضاً زي الخدمة أو قماش الخدمة، وعرف عندهم بالمثل زي المسابقات،

وقد أطلقوا عليه اسم قماش الركوب أو قماش المواكب، وقد عرفوا بالمثل قماش الجلوس وهو زي غير رسمي. وبالقطع كان القباء القماش ثقيلاً وسميكاً جداً. ولقد تواتر في الأخبار عن جند المماليك أنهم كانوا ينضونه عنهم هو والدروع حين يولون الأدبار ويهربون من ساحة المعركة، وروي أن السلطان الملك الأشرف قايتباي (حكم مصر 1468-1496م/872-901هـ) قد أوقف الالتزام بهذا الزى في الخدمة العادية بالقصور السلطانية، لأن الطقس في مصر حارٌ طيلة العام تقريباً.

وكان شأن المماليك في استغلال المناسبات الاحتفالية في منح ثياب التشريف لمن وقع عليه الاختيار، شأن السابقين عليهم واللاحقين بهم. فقد كانت الثياب تُهْدى في مختلف أنواع المناسبات. وكما كانت هناك ثياب تخلع على المُعيَّنين في المناصب العليا كخِلْعة النيابة وخلعة الوزارة وخِلْعة الاستقرار (في الوظيفة) فقد كانت ثمة أثواب أيضاً تخلع عند التجديد للمعينين في المناصب العليا (خِلَع الاستمرار)، وأخرى للخروج المُشرِّف من المنصب الرفيع (خِلع العزل)، وثمة أيضاً

(خِلع الرضا السامي) التي كانت تخلع على أصحابها ممن يرضى عنهم السلطان بعد سخط وغضب. وعادة ما كان يطلق على تلك الثياب الخصوصية اسم ثياب التشريفة أو الخلعة على السواء، وهي عبارة عن أكثر من ثوب واحد. كما تتضمن بالمثل أسلحة وحصاناً مسرجاً ومطهماً بغطاء مزركش للسرج يؤتي به من إسطبلات السلطان.

وفيما يتصل بالطبيعة العسكرية الهَرَميّة للمجتمع المملوكي، وولع المماليك بالأزياء الرسمية الموحدة، فقد كان ثمة مقياس موحد للخلعة طبقاً للوضعية والمقام للطبقات الاجتماعية الثلاث: (العَسكر، الموظفون المدنيون، علماء الدين). وفضلاً عما سبق من التوحيد القياسي للخِلع، فقد برز للوجود في الحقبة المملوكية اتجاه واضح نحو التقليل من شأن وأهمية نقوش الطراز التي كانت تنقش في الماضي فوق ثياب التشريف. لكن التطريز بالذهب والفضة والحرير، بقي على حاله، أما الصيغ والعبارات المسكوكة المحفوظة فلم تعد تُطرز فوق الثياب كما كان الحال في العهود الغابرة.

وفي سياق متصل فقد كانت أغطية الرأس ذات الأشكال المختلفة، من بين ما ميَّز ملابس الهيئات العسكرية إبان

حكم السلاجقة والأيوبيين[3] بشكل عام، وأثناء العهد المملوكي على وجه الخصوص. وتؤكد الرسوم التوضيحية الواردة في المخطوطات القديمة خاصة مخطوطة «مقامات الحريري» علاوة على التفاصيل الموجودة في «كتاب الأغاني» و«كتاب الدرياق» وغيرها من المصادر التي ترجع إلى تلك الحقبة، وجود تشكيلة كبيرة من طرز القبعات والعمائم، تتضمن قبعات ذات

كان القباء والشربوش معاً من اللوازم الأساسية لزي الفارس المسلم إبان العهدين الأيوبي والسلجوقي، كما كانا من لوازم حفل تقليد الفرسان، هذه الرتبة التي كان السلطان ينعم بها بين الحين والآخر على أحد الجنود..

أصول تعود لآسيا الوسطى والشرق الأقصى. أما غطاء الرأس الخاص بالطبقة العسكرية المملوكية، فكان عبارة عن قبعة ذات نسيج صلب قوي بأمامية مستطيلة ظهر في بعض الحالات أنها صفيحة معدنية. وكانت تلك القبعات تُزين أحياناً بالفراء وتسمى في هذه الحالة شربوشاً، وأحياناً كان يلتف حولها منديل صغير؛ فيشكلان نوعاً من العمامة كانت معروفة باسم «التخفيفة». وكان الشربوش واحداً من أهم لوازم الإمارة على الإطلاق. أما القبعة الأكثر شيوعاً فكانت تسمى «الكلوته» وعادة ما كانت صفراء اللون على عهد الأيوبيين، وإبان العهود الأولى للمماليك أخذت اللونين الأصفر والأحمر، ثم اقتصرت على اللون الأحمر فيما بعد.

وقد تعددت وتنوعت أشكال وأحجام وأنواع هذه القبعات عبر القرون؛ فقد كانت فيما خلا من عصور تُصنع من الصوف، لكنها فيما بعد أصبحت تُصنع من أقمشة أرقى وتُحلَّى بخيوط الذهب. ومثلها في ذلك مثل «الشربوش»، فقد كانت «الكلوته» قبعة عسكرية رسمية ومن الجائز لف التخفيفة حولها هي الأخرى. وفي حقيقة الأمر فإن رمزية هذه القبعات – بالنسبة للجيش المملوكي كأفراد وجماعات – بلغت أحياناً حد الإشارة إليهم باسم مشتق من»الكلوته»، ألا وهو (المُكَلوتون)، على غرار ما أشير إليهم بـ(الجنود المماليك) في عهد السلاجقة باعتبارهم أرباب السيوف وسادتها. وفي نهاية المطاف، آل الأمر إلى أن أصبحت الكَلوته لباس رأس يضعها سائر السكان

ولع المماليك بالأزياء الرسمية الموحدة، فقد كان ثمة مقياس موحد للخلعة طبقاً للوضعية والمقام للطبقات الاجتماعية الثلاث: (العَسكر، الموظفون المدنيون، علماء الدين).

من المدنيين، مثلها في ذلك مثل جميع قطع الثياب العسكرية التركية الأخرى. وصارت الكلوته بأشكالها المتنوعة قبعة شائعة يعتمرها تلاميذ المدارس العربية، مثلما كان الحال مع القبعات العسكرية التي شاع اعتمارها بين تلاميذ وسط شرق أوروبا طوال القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين.

وثمة قبعة أخرى ذاعت شعبيتها أثناء عصر الدولة المملوكية، ألا وهي «السراقوج»، وافدة من آسيا الوسطى، وكانت عبارة عن قبعة مخروطية الشكل عالية مدببة ذات حافة عادة ما كانت تُرفع لأعلى، ويمكن بالمثل خفضها لأسفل. وكانت ألوانها لا تخرج عن اللونين الأبيض أو الأسمر الخفيف. ومنها ما كان ذا طيتين بحافة خفيفة وقبة ملونة. وكان طرف القبعة المخروطية إما مُحلّىً بحلية معدنية كالرقع المعدنية أو حزم الخيوط أو بعض الريش الطويل المتدلي، وقد تكون خالية من ذلك. وقد يكون المخروط بسيطاً أو مزيناً على صورة قطاعات عمودية تلتف حولها تخفيفة ملونة ثُبتَّ فيها دبوس زينة أو رقعة معدنية تتلاءم ونوع القماش. وتُظهر رسوم المخطوطات في تلك الحقبة أن معظم من كانوا يضعون السراقوج فوق رؤوسهم شباب آسيويون أولو شعر مضفور.

وكان القباء والشربوش معاً من اللوازم الأساسية لزي الفارس المسلم إبان العهدين الأيوبي والسلجوقي، كما كانا من لوازم حفل تقليد الفرسان، هذه الرتبة التي كان السلطان ينعم بها بين الحين والآخر على أحد الجنود. ولعُلو مكانة هاتين القطعتين من قطع اللباس المميز للفرسان المغاوير في العالم الإسلامي آنذاك، فقد عمد الصليبيون إلى إلباس أحدهم القباء والشربوش كبادرة حسن نية وصداقة تجاه القائد صلاح الدين الأيوبي[4]. وفي عهد دولة المماليك البحرية، صارت القبعة والكوته

من اللوازم الأساسية لزى الفرسان. أما في عهد المماليك البُرجْيّة فقد انعقد اللواء للزَمط والملوته (نوع من العباءات) اللذين شكلا معاً الزي الرسمي للفرسان، ولقد ثار الكثير من الجدل حول طبيعة الزَمط الذي لم يكن في حقيقته إلا مجرد قباء. وقد يكون هو ذلك الغطاء الوبري الخشن للرأس الذي وصفه لنا بعض الرحّالة الأوروبيين. وثمة أمثلة للقبعات الوبرية الخشنة سواء منها الواطئة أو المرتفعة كالقلانس، صوّرتها ووصفتها الكتيبات العسكرية المملوكية مثلما ورد في كتيب «المخزون جامع الفنون» لناصر الدين بن الطرابلسي. والأمر الوحيد الثابت حول هذا الزمط أنه كان في العادة أحمر اللون.

الهوامش

1– المماليك هم سلالة من الجنود الذين استولوا على مقاليد الحكم في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية بين عاميْ 0521 و7151م، أي لفترة تناهز قرنين ونصف القرن. كان المماليك رقيقاً جلبهم الأيوبيون، وزاد نفوذهم بسبب ضعف الأيوبيين واستمرار إخفاقاتهم، استولوا على السلطة عام 0521م. كان القادة الأيوبيون يستقدمون المماليك من بلدان غير إسلامية كانوا في الأغلب أطفالاً يتم تربيتهم وفق قواعد صارمة في ثكنات عسكرية معزولة لضمان ولائهم. كان المماليك من أصول تركية ورومية وأوروبية وشركسية استطاع الجند والعسكر من المماليك حكم مصر والشام والعراق والجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن (0521-7151م). وقد استطاعوا إنشاء دولتين متعاقبتين كانت عاصمتهما القاهرة: دولة المماليك البحرية ومن أبرز سلاطينها عز الدين أيبك وقطز والظاهر بيبرس وقلاوون ومحمد بن قلاوون وصلاح الدين خليل الذي استعاد عكا آخر معاقل الصليبين في بلاد الشام. ثم دولة المماليك البرجية وقائدها السلطان الشركسي برقوق الذي تصدى لتيمورلنك واستعاد ما استولى عليه التتار في بلاد الشام والعراق، وكان من أبرز سلاطينها سيف الدين برسباي، فاتح قبرص وقنصوه الغوري وطومان باي.

2– بنو أيوب، أسرة أسسها صلاح الدين الأيوبي – ترجع أصولهم إلى الأكراد الروادية في أذربيجان – حكمت مصر والشام والحجاز وشمال العراق وديار بكر بجنوب تركيا وجنوب اليمن في القرنين 12 و 13 ميلادية، أهم سلاطين الأيوبيين: الناصر صلاح الدين والعزيز والمنصور والعادل والكامل والصالح.

3– انظر ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ.